مدرسة محمد علي الصناعية

لا بدَّ من الصناعة لكل بلاد تريد مجاراة غيرها من البلدان الراقية مراقي الفلاح ولو كانت زراعية محضة كالقطر المصري . لكن ارتقاء الصناعة في البلاد حتى تصير صناعية تكسب من تصدير مصنوعاتها يقتضي ان تكون فيها مواد الصناعة الاصلية كالحديد والنحاس ومحركاتها كالفحم الحجري والمياه المنحدرة من اماكن عالية . فان لم تكن فيها تلك المواد والقوى لم تصر صناعية مهما اهتمت بتعليم الصناعة . وهذا لا يفيد نفي الصناعة منها بتاتاً لانها لا تستغني عنها مهما كان حالها ولذلك فقولنا ان القطر المصري قطر زراعي لا قطر صناعي يفيد انهُ يكتسب من اصدار حاصلاتهِ الزراعية كالقطن والفول والحنطة ولا يكتسب من اصدار الحديد المسبوك والآلات والادوات وسائر المصنوعات التي تناظرهُ فيها البلدان الصناعية . غير ان ذلك لا يغنيهِ من عمل بعض ما يحتاج اليهِ من المصنوعات التي يسهل عملها فيهِ واصلاح ما يؤتى بهِ اليهِ يصنع في البلدان الصناعية . ومجال العمل في ذلك واسع جدًّا والربح منهُ وافر يكفي الالوف من ابناء هذا القطر ويغنيهِ عن كثير مما يؤتى بهِ من البلدان الاخرى

ولسنا ممَّن يبالغ في فائدة الصناعة لبلاد مجال الكسب فيها من الزراعة اضعاف ما هو من الصناعة ولكننا لا نبخس الصناعة حقها ولا نحبس اهالي البلاد لها لاسيما وانها مكملة للزراعة ولا غنى للبلاد عنها . وقد مضى الزمن الذي كان الشرقي يعدُّ الصناعة فيهِ عاراً وصغاراً ويترفع عن مخالطة صنَّاع بلاده ازدراء واحتقاراً واصبح عقلاء الشرقيين يقدرون الصناعة قدرها علماً منهم بفعلها في ترقية شؤون الاوربيين وبفضلها في رفاهة عيش المتمدنين فلا يفرقون اليوم بين ابن الحائك وابن المالك . ولارتفاع قدر الصناعة عندهم ومطابقتها لمقتضى احوال هذا الزمان الذي حلَّت فيهِ الآلات الكهربائية والعدد البخارية ونحوها من الآلات المتقنة التي سخرت بها القوى الطبيعية محل الآلات والادوات الساذجة القديمة واسست الصنائع المختلفة على المبادىء العلمية من طبيعية وكيماوية وميكانيكية لا على مجرَّد التجربة والاستقراء — اقبل كثيرون من ابناء المصريين على التعلم الصناعي في مدارس القطر الصناعية واولها واقدمها عهداً مدرسة بولاق الصناعية التي اسسها محمد علي باشا كبير العائلة الخديوية لتعليم احداث المصريين الصنائع المختلفة مدة خمس سنوات متوالية فتخرَّج منها الف وتسعة وستون صانعاً في الخمس عشرة سنة الماضية وفيها الآن ٣٧١ طالباً

ولا يكاد الانسان يذكر هذه المدرسة حتى يتذكر مدرسة المنصورة الصناعية لانهما

كلتاهما من انشاء الحكومة وكذا المدرسة الصناعية التي انشأتها الحكومة منذ عامين برئاسة جنسن باشا لتعليم الحدادة وخراطة المعادن والنجارة ولا سيما عمل المركبات وصناعة الصفيح وصناعة السروج والاصفان ونحوها مما يصنع من الجلد والدَّحن بالوان. وعن قريب تفرغ الحكومة من انشاء مدرسة صناعية مثل هذه في مدينة اسيوط ايضاً

فهذه المدارس الاميرية الاربع تدلُّ على رغبة الاهالي في تعلُّم الصناعة وهذه الرغبة تسرُّ محبي الوطن ولكنها لا تشفي غليلاً لانها موقوفة على عناية الحكومة لا على ميل حي تامٍ متأصل في قلوب الامة. ولا مشاحة في ان الحكومة المصرية من ارقى الهيئات لا في الشرق وحدهُ بل في الغرب ايضاً فلا يستعظم منها انشاء المدارس الصناعية ولا يستلزم اتقانها لها ان تكون الرعية نفسها قد تقدمت وارتقت الى درجة تناسب ذلك الاتقان بل لا بد للدلالة القطعية على تقدم التعليم الصناعي في هذا القطر ورغبة الاهالي في تعلم الصنائع ان يكون للامة نفسها يد في انشاء المدارس الصناعية مستقلة عن يد الحكومة فعلاً ولو كانت تستمدُّ منها الارشاد وتكتسب ثمار الاختبار في تنشيطها وادارتها وما شاكل ذلك

وهذا ما قد حصل فان الامة نفسها اظهرت ميلها الحي النامي الى تعلم الصنائع وترقية التعليم الصناعي بسعيها في انشاء المدارس الصناعية مستقلة عما كان من بابها من مدارس الحكومة ومدارس الاجانب المحبين الخير لهذه الامة . وهذه المدارس الصناعية الوطنية منها ما فتح كالمدرسة الصناعية التي انشأها محمود باشا سليمان في ابي تيج ومنها ما جمع المال لهُ ولم يفتح بعدُ وهو المدرسة الصناعية القبطية والمدرسة المقصودة بالكلام في هذه المقالة وهي مدرسة محمد علي الصناعية اهم مدارس الامة الصناعية شأناً واسماها مكاناً لانها غير قائمة على مال الحكومة ولا على مال فرد من افراد المحسنين المعدودين بل على مال مجموع من جماهير المتبرعين من اهل القطر بحسن مساعي جمعية العروة الوثقى البهية لتعليم الصناعة لاكبر عنصر من العناصر التي تتركب منها الهيئة المصرية . فان المال الذي جاد بهِ المتبرعون لانشاء هذه المدرسة بلغ ١٢ الف جنيه ثم وقف لها المحسن الكبير منشاوي باشا مئة فدان يبلغ ريعها السنوي ما يقوم بجانب كبير من نفقاتها ولولا الصعوبة في وجود الحل الموافق لبنائها لبنيت وفتحت منذ زمان اما الآن فان الافاضل الذين عنوا بجمع الاموال لها وسعوا في تدبير امرها وتعجيل زمان انشائها احتفلوا بوضع الحجر الاول من اساسها في الاسكندرية في ٢٣ مايو احتفالاً عظيماً حضرهُ الجناب الخديوي وجمهور كبير من الكبراء والعظماء ولما انتظم الاحتفال تلا بعض من تلامذة المدارس التي انشأتها جمعية العروة الوثقى خطباً وجيزة تناسب المقام

من ذلك خطبة لتلميذ قال فيها

مولاي — ان معشر الاطفال من ابناء رعاياكم المخلصين تخفق قلوبهم في هذا اليوم فرحاً بانعطافكم السامي وانّا وان كنا صغاراً لنعي ما في هذا الانعطاف من معانٍ كبار نعم انتم تودون لنا الرقي بالمعارف النافعة في الدين والدنيا وتسرون بنا ما كنا حيث تودون . ولسروركم بنا اكبر يوم ترونا رجالاً شغالين تربي بانفسنا في مناوز الحياة قائدنا العلم ورائدنا طلب الكسب الحلال يوم لا يكون تفاوت الدرجات بيننا بغنى الآباء وطنطنة الانساب والالقاب بل بالعلم والعمل يوم يفتخر مثلي بصنعة يحكمها فيقال هذا من عمل فلان لله دره لقد احسن واجاد هنالك يا مولاي تباهون بنا الامم وهنالك الفوز الصحيح لوطننا المحبوب وما هذا اليوم عنا ببعيد فها هي تباشيره بدت تجتلى بين بهاء المظاهر وهتاف الرعية بالدعاء لكم وفي هذه الساعة السعيدة تضعون بيدكم الكريمة اول حجر لاساس اول مدرسة صناعية بمدينة الاسكندرية فبوركت الساعة وبورك الحجر سيذكر التاريخ هذا اليوم وهذه المدرسة كما ذكر عصر جدكم الاكبر وما شيد من دور للصناعة والعلم يقول لنا اجدادنا كان لنا من المآثر والمفاخر كيت وكيت فسنقول لاولادنا نحن احيينا منها ما اندثر . يقول اجدادنا كان من عصرنا محمد علي الكبير فسنقول لاولادنا ان لنا من عترته عباس حلمي الثاني

وخطبة لتلميذة من تلامذة مدرسة الحمالين قالت فيها

مولاي — ان قيل ما لابنة حمال صعلوك ومخاطبة الملوك قلت هكذا اقتضت شيم مولاي الشماء اذ يبسط جناح الرحمة للمساكين والضعفاء ونحن معشر البنات اكثر فرحاً في هذا اليوم بعمل من شأنهُ تخفيف ويلات البطالة والكسل وها شقاء العائلات وتعب كرب الامهات فبهذا الاحساس ننظر الى هذا الاساس وقد اودعناهُ الآمال سائلين الله حسن المآل ان يحفظ مولانا لامتهِ وبيتهُ لرعيتهِ

ثم تقدّم دولتلو رياض باشا رئيس الاحتفال وقال مخاطباً الجناب الخديوي

مولاي — اتشرف بان اقدم لمقامكم السامي ما انتم اهل لهُ من واجب الشكر ومزيد الامتنان على ما تفضلتم بهِ من تشريفكم هذا الاحتفال تنشيطاً وتشجيعاً للعلوم والمعارف وعلى ما تكرمتم بهِ من المنح الجليلة وما بذلتموهُ من العناية والمساعدة الجزيلة في اظهار هذا المشروع من حيز الفكر والتصور الى عالم الوجود والعمل وهذا هو من مقتضى سجاياكم الكريمة التي جبلت على حب فعل الخير لاهالي البلاد التي قلدكم الحق سبحانهُ وتعالى مقاليدها

مولاي — هذا اليوم يوم عظيم يرم مبارك نحتفل فيهِ تحت حمايتكم ورعايتكم العلية بوضع

اول حجر لاساس مدرسة صناعية اهلية البلاد في اشد الاحتياج اليها وقد اطلق على هذه المدرسة تيمناً اسم ذاك الرجل العظيم الذي لهُ المآثر الجليلة على هذه البلاد ألاَ وهو جدكم الاكبر محمد علي . هذا الاثر الذي هو من جلائل الاعمال التي ستعود بالمنافع العظيمة والفوائد العميمة على هذه البلاد مما تنشرح لهُ الصدور وترتاح اليهِ النفوس ويسر لهُ ويهتم بهِ كل غيور محب للخير والعلوم سيبقى ان شاء الله تعالى تمثالاً وتذكاراً حيًّا لاسمكم الشريف ومحاسن عهدكم المنيف على مدى الازمان والاحقاب

حق علينا ان نعرف ونعترف بقدر هؤلاء الرجال الكرماء الذين تبرعوا وجادوا بالاموال وبالمثل هؤلاء الرجال الفضلاء اعضاء جمعية العروة الوثقى ورئيسها المقدام الذين قاموا بهذه الاعمال المهمة في خدمة الامة وبانجاز هذا المشروع الجليل . نخص بالذكر ايضاً ما اتاهُ اعضاء هذه الجمعية من الاعمال المبرورة والمساعي المشكورة من نشر العلوم والتربية بين مواطنيهم وما احدثوهُ وشادوهُ في الثغر من المدارس والمكاتب العديدة المعدة لتربية الصبيان والبنات التي نراها قد تمت وزهت ونجحت نجاحاً تاماً في زمن وجيز

هذا شاهد عدل بفضل كل من تكرم بالمال وكل من جاد بالاعمال فجزاهم الله عنا خيراً واخص بالذكر ايضاً على الانفراد احد اعضاء هذه الجمعية وهو خليل بك حماده رجل الجد والنشاط بما هو قائم بهِ من اعباء جمعية الحمالين وما ادراك ما هي . جمعية صغيرة الاسم كبيرة المنافع بما احتوت عليهِ من المبرات والحسنات وما آوت من اولاد الفقراء والمساكين الذين التزمت تربيتهم واعانتهم وانتشالهم من وهدة الفقر وظلمة الجهل والشقاء الى طريق السعادة والهناء فحق لهُ على ذلك منا خالص الشكر . وفي هذا المقام ايضاً يجب علينا التشكر الى جناب شيتي بك مدير عموم الجمارك والثناء عليهِ بما شمل هذه الجمعية الخيرية من العناية والمساعدة حبًّا بالانسانية والمروءة والامل وطيد بان لا ينقطع عن هذا العمل المبرور

ولا يفوتنا ذكر الجميل الذي صدر من كرماء الاوروبيين المستوطنين بيننا وما تبرعوا بهِ من المال بسخاء وكرم وجادوا بهِ من الخدم مساعدة لجمعية العروة الوثقى ولانجاز هذا المشروع فنذكر لهم ذلك بلسان الشكر والامتنان ولا ننسى لهم هذه المنة على مر الايام

ولا ننسى ايضاً ما كلف نفسهُ بهِ سعادة جونسون باشا من الاتعاب ابتغاء خدمة الانسانية والمدنية باشتراكهِ في الاعمال مع اعضاء الجمعية وارشادهِ لهم بما لهُ من سعة الاطلاع والاختبار حتى تقررت رسوم بناء هذا المحل وتقرر كل ما يلزم لهذا المشروع الذي كان لهُ فيهِ الحظ الاوفر فلهُ منا خالص الشكر على هذا الجميل

جناب اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل لتغيبهِ عن مصر . كلٌّ يعلم ما لهُ من المقام الارفع والنفوذ الشامل في هذه البلاد وبالاخص ما لهُ من اليد الطولى في كل ما لهُ مساس بالمصالح والمنافع العمومية فهذه اليد الفعالة قد شملتنا وهي التي كانت لنا معوانًا بل متممًا ومكملاً لهذا المشروع فحق علينا ان نعرف لهُ هذه المبرة ونقدم لجنابهِ واجب الشكر ونثني عليهِ اطيب الثناء ولا نبرح نترجاهُ بان لا يترك هذا المولود في مهدهِ صبيًّا بل يراعيهِ بعين عنايتهِ ويؤاسيهِ ويواليهِ الى ان يتربى ويبلغ اشدهُ ويصير رجلاً قويًّا يقوم بأود نفسهِ

مولاي : اسمح لي بان اتكلم بما يخالج ضميري . اذا نظرنا وتاملنا الان الى ما جريات الاحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد ان الاحوال والافكار قد تغيرت تغيرًا كليًّا واتخذت لها مجرًى جديدًا نحو التقدم والترقي وبث العلوم والمعارف وانتشارها في كل بقعة من بقاع البلاد وكل ما نراهُ امام اعيننا من هذه المشروعات العلمية الادبية والمؤسسات الخيرية الاهلية تعرب بعضها بعضًا لا نشك ولا نرتاب بانها أثر من آثار هذا الانقلاب فلا حاجة بنا الآن ان ندخل في موضوع الشرح والتأويل ولا في البحث والتدقيق في علل الامور ومسبباتها بل نكتفي الآن بان ننظر بعين البصيرة والاعتبار الى ما كنا عليهِ بالامس وما نحن فيهِ اليوم ونهنيء انفسنا ونتهلل بشرًا ونسجد لله شكرًا على ما وصلنا اليهِ من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليهِ قرائن الاحوال بمستقبل زاهر

ولا مشاحة ولا جدال ان الفضل في هذا كلهِ راجع الى كبار الامة وعظمائها وعلمائها وعقلائها الذين هم قادة افكارها فنرجو لهم من الله التوفيق وزيادة الالتئام والوفاق فيما بينهم حتى يثابروا ويستمروا على السير في هذا المجرى الجديد ويصرفوا كل قواهم في ازالة كل ما يحدث امامهُ ويعقبهُ من العقبات والموانع وبهذه الواسطة لا غير يمكننا ان نحفظ قوامنا في وسط معترك هذه الحياة الدنيا ونعيش بهناء وسلام . وفي الختام نبتهل الى الحق سبحانهُ وتعالى ان يؤيد عرشكم السامي ويزيد في نفوذهِ ليكون لنا ظلاً ظليلاً انهُ سميع مجيب

فشكرهُ الجناب العالي وقال لهُ ما معناهُ انك لقد اعربت عمَّا في فؤادي من السرور لهذا العمل المجيد ونطقت بلساني فيما سردتهُ من عبارات الشكر لمؤسسي جمعية العروة الوثقى ولحضرات رئيسها واعضائها ولحضرات الذين ساعدوا باموالهم وحسن مساعيهم لاحياء هذا العمل المجيد وقد زاد سروري ما رأيتهُ من جد الاسكندريين وسعيهم في تشييد الاعمال النافعة وسبقهم في ذلك جميع مدن بلادي لان في الاسكندرية قد كان مولدي ويسرني

ان يكون السبق لسكانها في كل عمل خيري وكل مشروع مفيد كما انهُ يسر في ان اضع اول حجر في اساس اول مدرسة صناعية تشاد في الاسكندرية وتحيي اجل اثر من آثار جد العائلة الخديوية فلنتقدم بسرور وافتخار لنضع هذا الحجر

ثم تقدم الى حيث يوضع الحجر في الاساس وتبعهُ البرنس عمر باشا طوسن ورياض باشا وفخري باشا ناظر الاشغال العمومية وصدقي باشا محافظ الاسكندرية ومحمد بك سعيد رئيس جمعية العروة الوثقى ورفعوا محضر الاحتفال ووضعت اشكال النقود المصرية والجرائد اليومية في صندوق صغير وضع في الاساس ووضع الجناب الخديوي الطين للحجر وأُنزل الى مكانهِ بآلة كانت ترفعهُ وتم الاحتفال

ولا شبهة في ان انشاء هذه المدرسة من فوائح التعاون على انشاء المدارس الصناعية فلهُ شأن كبير من هذا القبيل لكن انشاءها لم يقترن باظهار الهمة العالية والغيرة القومية التي يبديها بعض ابناء هذا القطر في ما يحسبونهُ من وجوه البر كايقافهم العقارات الواسعة الريع على الجوامع والتكايا. فلا يندر ان تسمع بواحد يوقف الف فدان ريعها في السنة بضعة آلاف من الجنيهات على اعمال قد لا تفيد احداً او قد تعلّم بعض الكسالى الغلو في الكسل والتوكّل. فاذا كان في البلاد حمية قومية فمجال اظهارها واسع جداً والمباراة فيهِ من خير الاعمال التي تكسب الذكر وتنفع الوطن. فان البلاد تحتاج الى مدرسة جامعة تبلغ نفقاتها في السنة عشرين او ثلاثين الف جنيه تعلّم تلامذتها العلوم الطبيعية والفلسفية والادارية والتجارية ونحو ذلك من مما يتعلمهُ قادة الامم. وهي في اشد الحاجة الى مئات من المدارس الابتدائية والمدارس الزراعية. فاذا تعلّم جمهور المزارعين مبادئ العلوم الطبيعية واصول العلوم الزراعية فلا يبعد ان تزيد حاصلات الارض عشرة في المئة او عشرين في المئة وما ادراك ما ذلك فان قيمة الحاصلات الآن نحو خمسين مليوناً من الجنيهات فاذا زادت عشرة في المئة فقط باتقان الاساليب الزراعية بلغت الزيادة في السنة خمسة ملايين من الجنيهات وهي تعادل اكثر من مئة مليون من راس المال

وعندنا ان ما نذكرهُ دواماً من امثلة المحسنين الاوروبيين والاميركيين لا بدَّ وان يحرك غيرة بعض الاغنياء الواسعي الثروة حتى يجودوا بجانب كبير من اموالهم على انشاء هذه المدارس فتنتفع بها البلاد اضعاف ما انتفعت من الاوقاف الخيرية